تدبر القرآن

اليوم رقم 14

ابن قرناس

بسم الله الرحمن الرحيم

بالأمس كان الحديث عن أربع سور مثلت المرحلة الأولى من مراحل الدعوة في المدينة. وكان من اليسير ملاحظة أن السور تظهر بالفعل أنها مرحلة توطن واستقرار، فلم تتحدث عن تشريعات، وسورها تنقل ما يجري ولم تركز على مخاطبة أهل يثرب المعارضين (بنو إسرائيل وأهل الكتاب غيرهم من يهود ونصارى).

ونتحول للحديث عن سور المرحلة الثانية من مراحل الدعوة في المدينة/ التي تسبق معركة بدر. وهي مرحلة تتسم بفرض التشريعات، خاصة سورها الثلاث الأولى. فبعد أن أصبحت دولة الإسلام واقع، واستقر الرسول والمهاجرون، كان لابد من سن التشريعات الدينية (التي تمثل القوانين التي تُسَيِّر الدولة أو تسير عليها الدولة). وفي هذه المرحلة نزلت ست سور، هي: البقرة، النساء، المائدة، الماعون، محمد، والصف.

واليوم سنتناول أطول سورة في القرآن على الإطلاق – البقرة – وأكثرها فرضاً للتشريعات، وسنتعرف على سورة النساء في اليوم رقم 15، وبقية سور هذه المرحلة في اليوم 16 إن شاء الله.

وتبدأ سورة البقرة بـ "ألم" كحروف افتتاحية تذكرنا بسور مكية سابقة، مثل العنكبوت من المرحلة السابعة، والسجدة ولقمان من سور المرحلة الخامسة، مما يعني أن السور التي تبدأ بنفس الحروف الافتتاحية لا يعني أنها نزلت متتابعة أو في مرحلة واحدة أو قريبة من بعض.

وتبدأ السورة بإيصال أول رسالة مدنية إلى بني إسرائيل: الم{1} ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ{2} الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ{3} والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ{4} أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{5}.

(الآيات 1-3) تؤكد على أن القرآن (ذلك الكتاب) هدى لمن يؤمن بالغيب ويقيم الصلاة وينفق، وهذا لا يعترض عليه بنو إسرائيل يثرب، ويعلمونه جيداً. لكن (الآية 4) تضيف صفة لازمة لدخول الجنة، وهي الإيمان بما أنزل على محمد وما أنزل على من سبقه من رسل الله (إشارة لرسل بني إسرائيل والتوراة)، وهو ما لم يقبل به بنو إسرائيل الذين لم يعترفوا برسالة محمد. لأنهم لو فعلوا فسيصبحون مسلمين وسيخسرون تميزهم (الذي يظنون) على بقية الناس، كونهم أتباع موسى الكليم والذين أغرق الله فرعون لتخليصهم من استعباده. بل إن دخولهم الإسلام يعني

اعترافهم أن عقائدهم خاطئة، وأن آباءهم عاشوا آلاف السنين وهم يظنون أن الله اختارهم لدينه من دون البشر. وظهور محمد كرسول لله يلغي تميزهم وميزاتهم التي غنموها من تفردهم بحمل "أهل الله"، الذي يعني أتباع دينه والذي حولوه لشعب مختار عند الله. خاصة أن محمد من بني إسماعيل الذين يضمر لهم بنو إسرائيل مشاعر ليس فيها من الود شيء، نتيجة لما حدث لإسحاق وخروجه من مكة للبادية. والتي كانت السبب في مسخ التاريخ بأيدي الإسرائيليين، وتعمد تشويه سمعة إسماعيل وبنيه. ولو كان محمد من بني إسرائيل فقد يعتبره كثير منهم مجدد للدين ويتبعوه، وحتى لو رفضوه فسيكون الرفض نتيجة لتمسكهم بالموروث كما فعلت قريش.

لكن رفض الإسرائيليين ومن معهم من يهود ونصارى في يثرب، يختلف جذرياً عن رفض قريش. فقريش رفضت الدعوة بسبب عدم إيمانها بالبعث، بينما رفض الإسرائيليون الدعوة، كتعصب وعصبية، ولا علاقة لها بما يدعوا له محمد الذي لا يختلف عما يؤمنون به ولا يعارضه.

(الآيتان: 6-7) تتجه إلى قريش: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ{6} خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ{7}. هم من اختار الكفر ولم يقرره الله عليهم، وقول الآية "ختم الله على قلوبهم..." كون من لا يؤمن في البداية فلن يؤمن وكأنه ختم على قلبه. ولأن من خلق القلب وسهل التفكير هو الله فكأن الله سلب هذه القدرات عن الكافر.

(الآيات: 8-20) تخاطب أناس يعلنون إيمانهم وهم كاذبون: وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ{8} يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ{9} فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ{10} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ{11} أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ{12} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ{13} وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ{14} اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ{15} أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُواْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ{16} مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ{17} صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ{18} أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ{19} يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم

مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {20}.

وتصفهم الآيات بأنهم مفسدون في الأرض وهذا الفساد ظاهر للعيان. كما تصفهم بأنهم في قلوبهم مرض، والذين في قلوبهم مرض اصطلاح يطلقه القرآن على الشخص السيئ عديم الأخلاق، وسيرد ذكر هؤلاء في سورة الأحزاب والنور وغيرها.

وهم أناس أعلنوا إسلامهم من أهل يثرب، ولكنهم لم يؤمنوا. وقد جرت العادة على أن من يعلن إيمانه بالدعوة، إما مستضعفين أو ممن يبحثون عن فرص أكبر مما حصلوا عليه في مجتمعهم، إضافة لقلة قليلة مخلصة. فلابد أن هؤلاء ممن أعلن إسلامه بمجرد معرفته أن الرسول قادم للمدينة، طمعاً في أن يحظوا عنده بما يرضيهم. ولما خاب ظنهم، لم يعلنوا ردتهم بل استمروا بإظهار الإيمان مع إبقاء كل تصرفاتهم الغير إسلامية والتي ذكرت الآيات منها سخريتهم من المسلمين القادمين من مكة الذين غالبيتهم من الضعفاء والمستضعفين، كما هو حال عامة من دخل الإسلام من الأوس والخزرج.

وتخبرنا كتب التاريخ والسير أن ممن فقد زعامته السياسية بسبب الإسلام، عبدالله ابن أبي ابن سلول، الذي يقول عنه ابن هشام في سيرته " أن قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم". ولكن هجرة الرسول ليثرب ونشأة دولة للإسلام هناك حول الناس عن مناصرته، فاضطر لإشهار إسلامه، وبقي على كفره حتى مات، يقول ابن هشام: قال ابن إسحاق : وأما عبدالله بن أُبي فأقام على شرفه في قومه مترددا، حتى غلبه الإسلام، فدخل فيه كارها.

ومثل ابن سلول كان هناك رجل آخر قد كوّن لنفسه زعامة دينية، وخسرها بسبب الإسلام أيضاً، وهو جزاء بن صيفي، الذي خرج مغاضباً من يثرب ولم يعد إليها حتى مات. ومثلهم سعد ابن عبادة سيد الخزرج قبل الإسلام. ونحن هنا لا نشهد على صحة اتهام هؤلاء، ولا غيرهم بالاسم، ولكننا ننقل ما جاء في كتب السير، ليس كتأكيد على أن هؤلاء كفار أو منافقين، ولكن كإشارة إلى أنه كان هناك منافقين معروفين هم من دخلوا الإسلام طمعاً بتحقيق مكاسب معنوية وجاه وهم من تتحدث عنهم سورة البقرة وسور مدنية قادمة.

(الآيات: 20-26) تخاطب كل الناس، كون يثرب يقطنها أناس بعقائد متنوعة. فهناك بنو إسرائيل الذين ينحدرون من أتباع موسى، وهناك اليهود الذين ابتعدوا عقيدة (مذهباً) بعد موسى. وهناك النصارى الذين انحدروا ممن آمن بعيسى، وبعضهم من اعتقد أن عيسى ابن الله أو أن عيسى وأمه آلهة مع الله. وهناك من لم يؤمن بعد من الأوس والخزرج الوثنيين، ومثلهم الأعراب حول

يثرب: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ{21} الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ{22} وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ{23} فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ{24} وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{25} إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً.

الآية:25 بشرى ووعد للمؤمنين.

(الآيات:26-29): تعود للحديث عمن أعلن إسلامه وهو لم يؤمن الذين ذكرتهم الآيات: 8-20: وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ{26} الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ{27} كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{28} هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{29}.

الدخول في الإسلام لا يعني التلفظ بالشهادتين في جو احتفالي وإعطاء شهادة وتغيير اسم المسلم الجديد. لكنه يعني عقد اتفاق وعهد مع الله أن يطيع كل أوامره وينتهي عن كل نواهيه، مقابل جنة في الآخرة وسعادة في الدنيا.

ولعلنا مررنا بآيات وسنمر بمثلها تؤكد أن من يقترف كبيرة وهو عالم عاقل ويصر عليها فهو مخلد في النار. وإن كانت فرق إسلامية قديمة قالت بهذا فقد وافقوا الحق، فالقرآن هو من يقول بذلك وليس الأشاعرة أو الخوارج أو المعتزلة أو غيرهم.

(الآيات:30-39) عن خلق آدم وموقف إبليس منه: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ{30} وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{31} قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ{32} قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ

مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ{33} وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ{34}.

الآية:30 تؤكد بشكل قاطع أن الله قال للملائكة دون بقية خلقه. أي أنه لم يقل لغيرهم معهم كالجن: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً". وهذا يعني أن كل من أخبرهم الله بخلق آدم ملائكة بما فيهم إبليس.

وقول الملائكة: " أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء" قياساً على ما اختبروه ويرونه من أفعال البشر. وهذا يؤكد أن آدم ليس أول البشر، وإن خلق بدون أب أو أم، مثلما خلق عيسى بلا أب وبقي إنسان: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ{59}آل عمران.

وكلاهما رجلين من البشر وليسا أول البشر.

والله جل شأنه أبلغ الملائكة في أماكن تواجدهم في الكون، والذي يطلق عليه القرآن: "الملأ الأعلى"، كما جاء في سورة ص: مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ{69} إِن يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ{70} إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ{71}.

لقد أبلغ الله الملائكة في المكان الذي يعيشون فيه(الملأ الأعلى)، ولم يحدث ذلك في الأرض، التي خلق عليها آدم.

بمجرد أن أبلغهم الله بخبر خلق آدم حتى تباينت مواقف الملائكة منه، وحصل خلاف بينهم حول ذلك. البعض قبل دون اعتراض. والبعض عارض بشدة " قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ."
وهذا الاعتراض بني على حجة أنهم أفضل من البشر وأن هذا البشر سيفعل ما فعله أمثاله من البشر المنتشرين على الأرض عندما خلق آدم. فهم هنا يقولون لماذا تريد خلق بشر يفسد في الأرض ويسفك الدماء، كما يفعل البشر الموجودين، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك. لقد بنى المعترضون من الملائكة اعتراضهم على خلق آدم، على شعورهم بأنهم أفضل من هذا الإنسان.

فأخبرهم الله بأشياء خفيت على الملائكة، تتعلق بخلق آدم، وبين جزءً منها بالدليل المحسوس :{ ..... قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ{30} وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلآئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{31} قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ

الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ{32} قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ{33}.

هنا أعلن من عارض تراجعهم عن اعتراضهم. إما قناعة تامة واعتراف بخطأ موقفهم، أو تسليماً بمشيئة الله، والسكوت لأنهم لا يستطيعون الاعتراض على مشيئة الله رضوا أم لم يرضوا، مع الاحتفاظ بالشعور الشخصي حيال خلق آدم.

الموقف من السجود

لو لم يطلب الله جل وعلى من الملائكة السجود لآدم فمن المحتمل ألا يعلن إبليس عصيانه، وسيعيش مع غيره من الملائكة الذين اعترضوا ثم سكتوا، لولا أن الله جلت قدرته طلب من الملائكة السجود لهذا الإنسان: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ{34} البقرة.

عندما طلب الله منهم السجود سجدوا جميعاً، بما في ذلك المعارضين لخلق آدم، والذين شعروا أنهم أفضل منه، إلا واحداً منهم، لم يستطع كبح جماح نفسه. فأعلن أنه لن يسجد لهذا المخلوق الذي شعر منذ البداية أنه أفضل منه.

نعم لقد سكت عن الاعتراض لأنها مشيئة الله ولا يستطيع الاعتراض على مشيئة الله في خلق من يشاء. لكن أن يسجد لهذا المخلوق وهو أفضل خلقاً منه فلا.

وموقف الملائكة مشابه لمواقف المخلوقات البشرية. فمثلاً لو أن حُكماً قضائياً وقع ضد أشخاص. فنجد أنهم سيعارضون، لكن شكل الاعتراض سيختلف بينهم. فمنهم من يعارض في البداية، وعندما يشرح له مبررات الحكم سيقتنع ويسكت، أو يسكت ولو لم يقتنع.

والبعض الآخر سيستمر بالاعتراض وقد يتصرف بتصرفات تؤدي لضرره شخصياً، لأنه شعر أن تراجعه تخل عن حق من حقوقه.

إبليس كان ممن عارض وسكت دون قناعة، ولما طلب منه السجود أعلن أنه يرفض السجود لمخلوق اعتبر نفسه منذ البداية أنه أفضل منه.

فطرد من رحمة الله ليس لأنه قال أنه أفضل من آدم، ولكن لأنه عصى أمر ربه. وعصيان أوامر الله موجبة للعقاب.

وتستمر الآيات بسرد ما حدث لآدم بعد ذلك: وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ{35} فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا

فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ{36} فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ{37} قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{38} وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{39}.

لقد سكن آدم وزوجه "الجنة" بمفهومها الأرضي التي تعني الغابة والأرض الخضراء الشجرية التي تجري فيها الجداول المائية. وقول المفسرين أنها جنة الخلد، يظهر كم يجهلون القرآن، الذي يؤكد أن جنة الخلد لم تخلق بعد، لأنها ستخلق في كون القيامة الذي لن يخلق إلا بعد انهيار وانتهاء هذا الكون. ومررنا بآيات كثيرة تؤكد ذلك.

ولأن القرآن يؤكد أن جنة الخلد لا تكون إلا بعد الحساب، والحساب يوم القيامة. فكيف يدخل آدم الجنة قبل أن يعمل وتسجل أعماله ويحاسب ثم يستحق الجنة، كما نص عليه القرآن: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً{57}النساء.

شيء آخر ذكرته الآية 35 وهو زوج آدم.

من أين أتت؟

القرآن لا يشير إطلاقا لأنها خلقت معه وبالطريقة التي خلق فيها، وإن كان هذا لا ينفيه، ويبقى هذا الاحتمال قائم.

فهل تزوج آدم من البشر القريبين منه؟

هذا ينفيه ما حدث لآدم بعد أن أكل وزوجه من الشجرة.

فلو كانت زوج آدم لم تخلق معه وكانت من الناس العاديين، فستكون اعتادت الملابس ولو بما يكفي لتغطية السوءة.

كما أنه لو كانت من الناس العاديين فسيتواصل أهلها معهما ويزورونهم وقد يعيش بعضهم معهم في هذه الأرض العشبية الشجرية (الجنة).

ونعود للآيات التي تقول أن الشيطان قادهما للزلل المتمثل بعصيان نهي الله بألا يأكلا من شجرة معينة، وأكلا.

فعاقبهما الله بطردهما من الجنة وأمرهما بالهبوط منها، وهذا يشير إلى أن الجنة تقع على جبل، وهبطا إلى أرض سهلية تحت الجبل.

ولنا أن نسأل: هل الشيطان هو إبليس؟

أم أن الشيطان هنا وساوس النفس، أنا أميل إلى أن الشيطان هو الوساوس وليس ذاك المخلوق من الملائكة الذي عصى ربه بعد السجود لآدم. وإن كان إبليس لديه القدرة على تحريك الوساوس لكنه لا يستطيع فرضها، وهي موجودة في النفس وليس إبليس مصدرها. فإبليس قد يكون شيطان، مثلما أن هناك شيطان من البشر يحرك وساوس أخيه، وهناك وساوس خفية من النفس البشرية ذاتها.

(الآيات:40-113) البقرة تحتوي على أول خطاب مباشر لبني إسرائيل في السور المدنية، بعد أن تحدثت عنهم وموقفهم من الحق سورة الجمعة، والآيات هنا تواصل ما ذكرته السورة في بدايتها:

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ{40} وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ{41} وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ{42} وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ{43} أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ{44} وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ{45} الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ{46}.

دعوة لدخول الإسلام، وألا يكونوا أول من يكفر به، وهم يعلمون أنه نفس الدين الذي جاء به موسى. وقوله "أول كافر به" لا تعني أنهم أول من كفر بدعوة محمد لأن قريش وغيرها سبقوهم، لكنه كناية مشابهة لقول أحدنا للآخر: لا تنسى موعدنا وخلك أول واحد يصل للرياض. فهو ليس أول واحد يصل، لا من كل الناس ولا حتى من مجموعته التي قد يسبقه منهم أحد. فالعبارة فقط لشحذ الهمة.

ودعوتهم للإسلام دليل على أن دينهم ليس مقبولاً عند الله، وأن كل من يرغب في الجنة فعليه الدخول في الإسلام.

وتسرد السورة عليهم عدداً من النعم التي من الله بها على أجدادهم، وتفاصيل يستحيل أن يعرفها محمد لو لم يكن رسولاً لله: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ{47} وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ

وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ{48} وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ{49} وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ{50} وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ{51} ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{52} وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ{53} وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ{54} وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ{55} ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{56} وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ{57} وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ{58} فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ{59} وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ{60} وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ{61} إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{62} وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ{63} ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ{64} وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ{65} فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ{66} وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ{67} قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ{68} قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ{69} قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاء اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ{70} قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ{71} وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا

كُنتُمْ تَكْتُمُونَ{72} فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ{73} ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ{74}.

والآية: 62 سبق وتحدثنا عنها أنها لا تعني أن الله يقبل ديانة من يؤمن بالله ولا يؤمن برسالة محمد، والآية تشدد على القول "من آمن بالله" وليس من بقي على عقيدته اليهودية أو النصرانية أو الصابئية أو غيرها: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{62}. فمن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً، فله أجره. ومن الإيمان بالله، الإيمان برسله وكتبه، ومنهم محمد والقرآن.

وتقرر السورة أن بني إسرائيل لن يؤمنوا برسالة محمد، مخاطبة المسلمين: أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ{75}.

فمن كفر بموسى في عصره وحرف الكلم عن مواضعه برغم شهادتهم لنعم الله عليهم حينها، فلن يؤمن برسالة جاء بها أحد أبناء إسماعيل المغضوب عليهم من قبل بني إسرائيل.

وتشير السورة إلى أن بعض بني إسرائيل يظهرون تصديق رسالة محمد وكانوا يطلعون المسلمين أو الرسول بعض ما تقول بقية ما بقي من التوراة معهم، لمقارنته بما في القرآن (على ما يبدوا) فيأتي أناس آخرين منهم وينهونهم عن ذلك، كون عقيدتهم ميزهم الله بها عن بقية البشر (كما يظنون): وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ{76} أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ{77}.

وهناك نوع آخر، لا يقرأون ولا يكتبون، ولكن يعتمدون في معرفة دينهم على ما يقول لهم رجال دينهم: وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ{78}.

وهؤلاء إمعات لا خطر على الإسلام ولا على دين الله منهم، ولكن الشر يكمن في رجال الدين: فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ{79}.

فهم من يشرع ويقول أن ما يشرعه من حلال وحرام وغيره يمثل دين الله. وهذا اقتبسه المسلمون منهم وترسخ بيننا في كل المذاهب، فأصبح لدينا من يكتب الكتاب بأيديهم ويقولون هو من عند الله، ويجدون أميون "إمعات" يتبعونهم في كل م يقولون دون تفكير.

ومن عقائد بني إسرائيل التي ترسخت لدينا بفضل رجال الدين، القول بأن صاحب الكبيرة يعذب فترة في النار ويخرج: وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ{80} بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيـئَتُهُ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{81} وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُولَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{82}.

الآيات تنفي هذا الاعتقاد، وتقول بكل وضوح. أن زعم بني إسرائيل ليس له مصدر، وهو تَقوُّلٌ على الله ما لم يقل. فالله جل شأنه يؤكد أن من اكتسب خطيئة (كبيرة)، فسيخلد في النار ولن يخرج منها. وأن من التزم العمل الصالح والبعد عن الكبائر مع الإيمان فسيخلد في الجنة. ((أرجوا أن يكون الإخوة والأخوات قد قاموا بحصر الأدلة التي ممرنا بها التي تؤكد أن صاحب الكبيرة في النار وأن من دخل النار فلن يخرج منها بعد فترة بل سيخلد فيها)).

وتذكر السورة بني إسرائيل ببعض تشريعات التوراة: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ{83}.

وهذه التشريعات متطابقة مع ما ذكره القرآن، كدليل أن القرآن والتوراة التي نزلت على موسى، دين واحد.

وتقص علينا السورة حادثة وقعت لبني إسرائيل: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ{84} ثُمَّ أَنتُمْ هَـؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ{85} أُولَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ{86}.

لقد اقتتلوا فيما بينهم وقام المنتصر بطرد المهزوم من الديار. فهل حدث هذا بعد هجرة الرسول والسورة تسجل حدثاً تاريخياً للتو وقع، أم أن السورة تُذَكِّرُ بحدث تاريخي من تاريخهم؟

وتستمر السورة بالحديث عن تاريخهم: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ{87} وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ{88}.

الآية 87 تشير إلى أن عيسى ابن مريم جاء بعد موسى مباشرة، لإعادة بني إسرائيل لتعاليم التوراة التي انحرفوا عنها. وهو دليل آخر من أدلة كثيرة على أن عيسى ابن مريم ليس يسوع المسيحية.

ونفس الآية تؤكد أن بني إسرائيل تتالت فيهم الرسل، وأنهم قتلوا بعضهم، ولم يتبعوا ويصدقوا البقية.

الآية: 88: بنو إسرائيل كفار، حتى قبل بعثة محمد، لأنهم انحرفوا عن التوارة واتبعوا تشريعات ابتدعوها، ولم يقبلوا دعوات الرسل الذين بعثوا فيهم لإعادتهم للحق. فهم كفار برغم أنهم يؤمنون بالله، وقد يؤدوا بعض الشعائر الدينية.

وتؤكد السورة أنهم لم يؤمنوا بمحمد، برغم أن ما جاء به متوافق مع ما يعرفون من الدين: وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ{89} بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أَنَزَلَ اللّهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ{90}.

الآيات تقول: بنو إسرائيل كفار لأنهم كفروا بدعوة محمد، وكل من يكفر برسالة محمد فهو كافر. دليل لا يقبل الجدل في أن الإسلام (رسالة محمد) وحده المقبول عند الله ومن لا يؤمن بالإسلام فهو كافر. اليهود والمسيحيين والهندوس والمجوس وغيرهم كفار.

وتؤكد السورة مرة أخرى أنهم كفار، لتمسكهم بالإيمان بالله على ديانتهم، وعدم الدخول في الإسلام، والآيات تقول هذا غير مقبول: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{91}.

وتقول الآية لهم: أن محمد مجدد لدين الله، ومن لا يؤمن به كافر، وأنتم لو كنتم مؤمنين لتبعتم الرسل الذين تلوا موسى والذين جاؤا لتجديد الدعوة، ولما قتلتوهم.

وتستمر الآية في نفس السياق وتقول أنكم أشركتم وموسى بينكم، وعصيتم وكفرتم: وَلَقَدْ جَاءكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ{92} وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ{93}.

بنو إسرائيل يرددون ما يردده اليهود اليوم من أنهم شعب الله المختار وأحباء الله دون البشر: قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{94} وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ{95} وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ{96}.

وتورد السورة بعض معتقدات بني إسرائيل يثرب: قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ{97} مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ{98}.

مرة أخرى السورة تؤكد أنهم كفار لأنهم لم يؤمنوا بمحمد: وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ{99}.

وهم اعتادوا على مر تاريخهم أن تتابع عليهم الرسل ولا يؤمنون: أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ{100}

ولذلك فكفرهم بمحمد ليس مستغرباً: وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ{101} وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ{102} وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ{103}.

هم كفار لأنهم كفروا برسالة محمد، برغم إيمانهم بالله.

الآية: 102 تخبرنا أن من بين العقائد التي كانت عند بني إسرائيل يثرب زمن الرسول، كهانة وسحر توارثوه منذ أيام مملكة سليمان. حيث كان هناك "شياطين" (من الإنس) يعلمون الناس تلك الكهانة والسحر التي نقلوها من حاكمين من الناس لمملكة أرضية اسمها بابل. والملكان اسميهما: هاروت وماروت.

الملكين في الآية تم تشكيلها على أنهما من الملائكة (بفتحة على اللام الوسطى)، والحقيقة أنهما ليس من الملائكة ولكنهما بشرين، وبالتالي فالتشكيل يجب أن يكون على هذا الأساس (كسرة على اللام في الوسط).

وكون بني إسرائيل يتبعون معتقدات توارثوها منذ زمن سليمان فهذا يؤكد أن بعضهم قد نزح ليثرب بعد أن انهارت مملكة سليمان نتيجة لغزو خارجي – كما سبق وذكرنا – وتأكيد إلى أن مملكة سليمان تقع في اليمن، لأن الهجرات دائماً تكون من أقصى جزيرة العرب إلى الشمال.

وتحذر السورة المؤمنين ألا يقلدوا بني إسرائيل في بعض ألفاظهم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ{104}.

وقد يكون للفظ "راعنا" معنى دارج سيء عندهم، وبالتالي يجب على المسلمين ألا يوجهوه لرب العالمين. وهو ما أكدت عليه سورة النساء التي نزلت بعد البقرة مباشرة: {مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً{46} النساء.

والآيات تؤكد وتكرر التأكيد على أنهم كفار.

وتشير السورة إلى أن بني إسرائيل يعلمون أن محمد رسول لكنهم لن يتبعوه كونه من بني إسماعيل وليس منهم. وشبيه لذلك موقف قريش التي لم تؤمن كون الرسول ليس من الكبراء: مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ{105}.

وتلتفت السورة لمخاطبة المسلمين الذين قد أطلعهم بنو إسرائيل على بعض ما في التوراة والتي ليس في القرآن مثلها: مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{106} أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ{107}.

الدين واحد، ولكن قد ينزل على الرسول عبارات تختلف عن عبارة التوراة، وقد تتفق معها. وهذه الآية لا شأن لها بما سماه رجال الدين بالناسخ والمنسوخ والذي يعني أن الله ينزل تشريعا ثم ينزل تشريع ينقضه أو يلغيه.

وتظهر السورة أن بعض المسلمين، ونتيجة لمعاشرة بني إسرائيل، قد يتشبهوا بهم ويسألوا محمداً أسئلة سألها بنو إسرائيل موسى: أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ{108}

وسؤال بني إسرائيل لموسى أخبرتنا به سورة النساء: يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُّبِيناً{153}النساء.

وتستمر السورة تخاطب المسلمين وتحذرهم من الاستماع لبني إسرائيل: وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{109} وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ{110}.

وسنرى أن تحذيرات القرآن من الاستماع لبني إسرائيل تكررت كثيراً على أسماع المسلمين، لكن الأيام ستثبت أن المسلمين سيتشربون الإسرائيليات وسيبنون عليها عقائدهم، وهو ما تغص به كتب التراث الديني لكل المذاهب.

وتعود السورة للحديث عن بني إسرائيل، وخاصة ما سبق وأشارت له الآيات: 94-96 : وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{111} بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{112}.

بنو إسرائيل كيهود اليوم يعتقدون أن الله اختارهم وفضلهم على كل البشر، وبالتالي هم وحدهم من سيدخل الجنة. كما أن هذا الاعتقاد يعتقده النصارى في يثرب، والآية تنفي هذا الاعتقاد وتؤكد أن الجنة لمن أسلم وجهه لله على الطريقة المحمدية.

والنصارى كما سبق وذكرنا في مقدمة السور المدنية هم من وجدوا بعد عيسى ابن مريم بعضهم يؤمن بالوحدانية وبعضهم يعتقد بتثليث مخالف لتثليث المسيحيين. فتثليث النصارى هو: الله

(تعالى الله علواً كبيراً) وعيسى وأمه، بينما تثليث المسيحيين: الأب، والابن (يسوع) والروح القدس. والنصارى في يثرب لم يبق لهم اثر بعد عصر صدر الإسلام.

وتظهر السورة أن اليهود والنصارى في يثرب ليسوا على وفاق: وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ{113}.

(الآيات:114-119) تتحدث عن قريش: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَـئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ{114} وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ{115} وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ{116} بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ{117} وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ{118} إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ{119}.

قريش منعت المسلمين من دخول المسجد الحرام في أواخر تواجدهم في مكة، كما ذكرت سورة الحج: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ{25}.

(الآية:116) تكرر ما سبق وذكرته سور مكية من أن قريش تقول أن الملائكة بنات الله.

(الآية:118) قريش تكرر مطالبها اللا-معقولة على أسماع محمد، مثل طلب رؤية الملائكة أو معجزات، أو رؤية الله أو تكليمه لهم كما يكلم محمد، مثلما أشارت سورة الأنعام: {وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ{124}.

وهو ما سألته أمم قديمة منهم بنو إسرائيل: {يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُّبِيناً{153}النساء.

(الآية:119) أنت يا محمد بشير ونذير فقط ولست مسئولاً عن هداية الناس. هكذا يجب أن يكون كل داعية مسلم، يوصل ما يقول القرآن للناس وبس، ولا حاجة للوعظ والقصص. طبعاً لن يوافق

الغالبية، خاصة من يحب الظهور والأضواء والإعلام، ويشعر بالزهو وهو يحشد المستمعين لـه، أثناء ممارسته لقصصه. وما يجنيه وراء كل ذلك من مال وجاه وسلطة.

(الآية: 120) تكرر ما ذكرته الآيتان:111-112: وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ{120}.

(الآية:121) تشير لمن آمن من بني إسرائيل: الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَـئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ{121}.

ثم تعود السورة لمخاطبة بني إسرائيل يثرب، ودعوتهم للإسلام وتذكيرهم ببعض نعم الله عليهم: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ{122} وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ{123}.

(الآيات: 124-134) تتحدث عن إبراهيم: وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ{124} وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ{125} وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ{126} وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{127} رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ{128} رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ{129} وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ{130} إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ{131} وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ{132} أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ{133} تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ{134}.

(الآية:125) مكة آمنة منذ القدم. كما أن الناس عادوا للحج وزيارة البيت منذ أن طهره إبراهيم وأعاد بنائه. والآية تقول: " وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى"

والحديث هنا عما كان في عصر إبراهيم. لذا فكلمة "واتخذوا" يجب أن تُقرأ على أنها فعل ماضي وليس كفعل أمر. فالناس في عصر إبراهيم اتخذوا من مقام إبراهيم حول الكعبة مكاناً للصلاة، ولا تطلب الآية من الناس الآن أو في عصر الرسول أن يصلوا في مقام إبراهيم.

(الآية:126) دعوة إبراهيم أن تكون مكة آمنة "أي تستمر آمنة" وأن ترزق بالثمرات. وهو دعا بهذا الدعاء لأن مكة أصبحت موطنه منذ أن لجأ إليها بعد خروجه من قريته مع لوط، وعاش فيها حتى تلك اللحظة المتقدمة من عمره، وبقي فيها بعد ذلك حتى مات.

ثم تعود السورة للحديث عما سبق وقام به إبراهيم في مكة بعد أن أصبح ولده إسماعيل شاباً، وكلفه الله بمعاونة والده لصيانة البيت: وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{127} رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ{128} رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ{129}.

ثم تكرر السورة أن بني إسرائيل ليسوا على دين الله وأن اليهود والنصارى ضالين: وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ{130} إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ{131} وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ{132} أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ{133} تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ{134}.

كما سبق وأشارت له الأنعام في الآية: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ{161}.

(الآيات:135-141) ترد السورة على مزاعم اليهود والنصارى، وتؤكد كفرهم: وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ{135} قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ{136} فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{137} صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ{138} أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطَ كَانُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً

عِندَهُ مِنَ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ{140} تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{141}.

فكل من ليس على الإسلام عليه أن يؤمن بمثل ما أمن الرسول والمسلمون به، وإن تولوا فليسوا بمؤمنين.

ثم تنتقل السورة لتتحدث عن القبلة في(الآيات:142-150):

سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{142} وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ{143} قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ{144} وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ{145} الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ{146} الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ{147} وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{148} وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ{149} وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ{150}.

وقد نشر في الفيس بوك موضوع عن هذا سنعيد تذكير القراء به، كما يلي:

تثبيت القبلة

تتحدث سورة البقرة عن تحويل القبلة في الآيات: 142- 150، 177، وهو ما يعني أنه حدث في أول العهد المدني، لأن سورة البقرة نزلت في بداية العهد المدني.

والآيات تتحدث في الواقع عن تصحيح اتجاه القبلة التي وجد الرسول المسلمين في يثرب يتوجهون إليها في صلاتهم، وليس تغييراً لقبلة عرفها الرسول منذ بداية الدعوة.

وكتب السير والتراث بدل أن تناقش معاني الآيات الواضحة، قامت بلي معاني الآيات لكي تقول أن الله جل شأنه، ومنذ فرضت الصلاة قد أمر الرسول بالتوجه في صلاته لإيليا، المعروفة اليوم بالقدس، والتي تقع في فلسطين الحالية. وبناءً على زعمهم، فالرسول طوال دعوته في مكة التي امتدت لثلاثة عشر عاماً – حسب ما قالوا - كان يضع الكعبة بينه وبين إيليا أثناء صلاته، بحيث يتوجه لإيليا، كما أُمر، وللكعبة في نفس الوقت. وعندما هاجر للمدينة نزلت آياتٌ في سورة البقرة تأمره بتغيير القبلة من إيليا إلى مكة.

ولا نحتاج لأنف شديد الحساسية لكي نشتم رائحة يهودية وراء تأويل الآيات عن معانيها لكي يرسخوا لدى المسلمين أن إيليا المقدسة عندهم مقدسة عند الله. والعادة هرع المفسرون والمحدثون لتلقف وتبني كل ما يدسه اليهود في دين الله ويرسخوه ويتوارثوه حتى وصلنا وكأنه هو الحق، ومعاني الآيات الواضحة هي الباطل.

ولو صدقنا هذه التراهات اليهودية الأصل، فإن الرسول والمسلمين في مكة قبل الهجرة كانوا يصلون دائماً إلى الجنوب من الكعبة فقط، لكي تكون الكعبة وإيليا على خط واحد، ولا يصلون في أي مكان آخر حول الكعبة.

وأصبح الزعم بتوجه الرسول لإيليا عقيدة راسخة، بين المسلمين بمختلف طوائفهم، لا تقبل الجدل، مع أن إيليا وفلسطين كلها لم تذكر في القرآن ولو بشكل عارض.

ولم يكن هناك مسجد اسمه الأقصى في فلسطين زمن رسول الله، بل لم يكن هناك مسجد اسمه الأقصى في فلسطين إلى أن وصل خامس ملوك بني أمية عبد الملك ابن مروان للحكم في العام 65 للهجرة. وأثناء فترة حكمه التي امتدت من 65 – 86 للهجرة أمر ببناء مسجد في إيليا (القدس) وأسماه المسجد الأقصى على المسجد المذكور في أول آية من سورة بني إسرائيل. في وقت كانت فيه مكة تحت حكم عبد الله ابن الزبير وخارج سيطرة حكم بني أمية.

فالسياسة هي سبب بناء قبة الصخرة والمسجد الذي سمي "المسجد الأقصى"، لأن ابن الزبير كان يحكم مكة ويخطب الناس بالحج ويبين مثالب وعيوب ابن مروان ويحرض أهل الشام عليه، فقام عبد الملك ابن مروان ببناء القبة والمسجد وجعل الناس يحجون لها بدل مكة. بناءً على ما ورد في كتاب البداية والنهاية لابن كثير، وهذا نصه:

ابتدأ عبد الملك بن مروان ببناء القبة على صخرة بيت المقدس وعمارة الجامع الأقصى؛ وكملت عمارته في سنة ثلاث وسبعين، وكان السبب في ذلك أن عبد الله بن الزبير كان قد استولى على مكة، وكان يخطب في أيام منى وعرفة، ومقام الناس بمكة، وينال من عبد الملك ويذكر مساوي

بني مروان، ويقول: إن النبيّ صلى الله عليه وسلم لعن الحكم وما نسل، وأنه طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولعينه، وكان يدعو إلى نفسه، وكان فصيحاً، فمال معظم أهل الشام إليه، وبلغ ذلك عبد الملك فمنع الناس من الحج فضجوا، فبنى القبة على الصخرة والجامع الأقصى ليشغلهم بذلك عن الحج (إلى مكة) ويستعطف قلوبهم، وكانوا يقفون عند الصخرة ويطوفون حولها كما يطوفون حول الكعبة، وينحرون يوم العيد ويحلقون رؤوسهم، ففتح بذلك على نفسه بأن شنع ابن الزبير عليه، وكان يشنع عليه بمكة ويقول: ضاهى بها فعل الأكاسرة في إيوان كسرى، والخضراء، كما فعل معاوية (ونقل الطواف من بيت الله إلى قبلة بني إسرائيل ونحو ذلك). انتهى كلام ابن كثير

أما المسجد الأقصى المذكور في سورة بني إسرائيل، فليس المقصود به مسجد عبد الملك ابن مروان الذي أسماه المسجد الأقصى، ليغري الناس بالحج إليه. والذي بني لضرورة سياسية ولم يكن تجديداً لمسجد قديم، لموسى أو إبراهيم كما تزعم الإسرائيليات، لأنهما لم يريا فلسطين في حياتهما، ولم يسجدا لله فيها سجدة واحدة.

ولعل ما حدث فيما عرف بين المسلمين بتغيير القبلة، هو كما يلي:

عندما بدأت الدعوة في مكة وأُمر الرسول بالصلاة، كان رسول الله يصلي بالقرب من الكعبة ويتوجه لها، بشكل عفوي وطبيعي، من أي مكان كان يتواجد فيه حولها، لأن الصلاة لله، والكعبة بيت الله: {جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ... .....{97} المائدة.

وليس هناك بيت آخر لله ذكر في القرآن، وهذا البيت هو ما صلى نحوه إبراهيم قبل عصر محمد بآلاف السنين. ولم يخطر على بال الرسول أن يتوجه لأي اتجاه آخر، ولم يوجد سبب يحمله على التوجه لغير بيت الله الوحيد على الأرض.

وعندما نعود للكيفية التي أسلم بها من أسلم من يثرب، والتي ذكرناها بتفصيل وباعتماد آيات قرآنية في كتاب أحسن القصص، فسنجد أن قلة من بني إسرائيل هم أول من أسلم بعد لقاء الرسول في مكة والاقتناع بصدق دعوته – بخلاف ما تقول كتب التراث أن الأوس والخزرج هم أول من آمن – وأن النفر من بني إسرائيل الذين آمنوا بالرسول في مكة عادوا لموطنهم وبدءوا دعوة قومهم وبقية أهل يثرب للدخول في الإسلام، فدخل الإسلام الناس في يثرب بهذه الطريقة، دون أن يروا الرسول أو يعيشوا بالقرب منه. ومع أن غالبية من أسلم هم من الأوس والخزرج إلا أنهم وثنيون وسيتوجهون لأي جهة في الصلاة لمن علمهم الدين. أما بنو إسرائيل الذين أسلموا ونقلوا الإسلام ليثرب فقد كان لهم دين، ومن معتقداتهم الراسخة تراثياً تعظيم إيليا (القدس)، بحكم

أنه يوجد فيها هيكلاً يماثل هيكل سليمان الذي كان مقاماً في بلادهم الأصلية جنوب غرب جزيرة العرب قبل أن يتشتتوا في بقاع الأرض بسبب الحروب الأهلية والغارات الأجنبية. فكانت إيليا بالنسبة لبني إسرائيل في يثرب المكان المقدس الذي يتوجهون له عند "صلاتهم". ويبدوا أن أوائل مسلمي يثرب من بني إسرائيل استمروا في التوجه لإيليا في صلواتهم الإسلامية، وتبعهم كل من أسلم على أيديهم من قومهم أو من وثنيي الأوس والخزرج والأعراب.

وعندما وصل الرسول مهاجراً، كان مسجده قد بني قبل وصوله. وقد بناه من دخل الإسلام من أهل يثرب، وليس صحيحاً زعم كتب التراث أن المسجد بني بعد وصوله. ولأن مسجد الرسول بناه أهل يثرب بقيادة من أسلم من بني إسرائيل، فقد وجد رسول الله أن المسجد الذي بني له كان يتجه للشمال، كما لاحظ أن المسلمين في يثرب يتجهون في صلواتهم للشمال، بينما كعبة مكة تقع إلى الجنوب. وبحكم أن الرسول لا يستطيع أن يأمر الناس بأمر ديني أو ينهاهم إلا بعد أن ينزل عليه قرآن يتلى عليهم، فلم يستطع أن يتحدث معهم عن وجهتهم في الصلاة، حتى نزلت عليه سورة البقرة وفيها آيات تغيير القبلة:

سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{142} وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ{143} قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ{144} وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ{145} الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ{146} الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ{147} وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{148} وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ{149} وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ{150}.

والآيات تنص على أن السفهاء من الناس (غير المسلمين من يثرب) الذين اعتادوا رؤية المسلمين التوجه للشمال في صلاتهم (المسلمون من يثرب بالذات) هم من كانوا يتوجهون لغير مكة " سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عليها."

والسفهاء هنا لبقية أهل يثرب من غير المسلمين الذين سيتساءلون لماذا غير المسلمون قبلتهم التي اعتادوا هم رؤيتهم عليها. ولا يعني أن هذه قبلة الرسول والمسلمين منذ بداية الدعوة. فالحديث هنا عن أهل يثرب غير المسلمين (السفهاء من الناس) الذين لم يروا الرسول يصلي في مكة إلى الكعبة. فتغيير القبلة هنا لمن توجه لقبلة خطأ، وليس كما رسخ التراث أن قبلة الرسول كانت من البداية لغير مكة.

فالرسول لم يتوجه لغير القبلة، وكان يصلي لها قبل وبعد هجرته وقبل نزول آيات سورة البقرة "وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ."

والرسول حتى بعد هجرته، وبعد أن وجد الناس تصلي للشمال استمر يصلي للجنوب، دون أن يأمرهم بتحويل قبلهم لمكة لأنه لم ينزل عليه قرآن بذلك.

فتغيير القبلة لمن يتوجه لغيرها جاء ليتوافق مع قبلة الرسول التي كان عليها ولم يغيرها.

وتستمر الآيات لتقول للرسول أن القبلة باتجاه الكعبة ثابتة، سواءً كنت في مكة أو بعيداً عنها "وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ" فكونك هاجرت للمدينة لا يعني تغيير القبلة.

ولا يجوز لأحد التوجه لغيرها بأي حجة أو تبرير " لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ."

ومسلموا يثرب الأوائل من بني إسرائيل، توجهوا إلى إيليا لغلبة الموروث الديني عندهم، ظناً منهم أن إيليا بالفعل مقدسة عند الله، لأنهم توارثوا هذه القدسية، ولذا قد يشعر بعضهم بعدم الارتياح للتوجه لمكة لأن موروثهم الديني والثقافي لا يحمل أي مشاعر تقديس لمكة، حتى بعد أن أسلموا، لأنهم يعتبرونها معبداً للأميين الإسماعيليين، وليست بيتاً لله. وهذه الثقافة غرست في بني إسرائيل منذ القدم. ((إنتهى الاقتباس))

وأضيف هنا أن المفسرين ذكروا قصصاً مختلقاً كثيراً ومختلفاً، ومنه يمكن دحض إدعاءاتهم. وسأعطي مثالاً على ذلك دون تتبع لكل ما قالوا حتى لا نطيل: فهم يقولون أن تغيير القبلة حدث بعد أشهر من قدوم الرسول للمدينة، وكان ذلك في صلاة الظهر، حيث نزل عليه الوحي بعد أن

صلى ركعتين باتجاه فلسطين. فاستدار واستدار الناس معه، وأكملوا الركعتين باتجاه الكعبة. ويستحيل أن يكون هذا حدث، ويظهر أن من اختلق قصص تغيير القبلة لا يعرف مكة بأي اتجاه، ولا يعرف أن مكة تقع جنوب المدينة وأن فلسطين تقع باتجاه الشمال في المدينة. ولو عرفوا ذلك لما قالوا أن الرسول استدار – وهو في صلاته – من اتجاه فلسطين إلى مكة. لأنه لو كان الرسول يصلي بالناس باتجاه فلسطين وهو في المحراب وأراد أن يتجه لمكة التي تقع بالاتجاه المقابل، فعليه أن ينتقل من محرابه ليكون في بقعة ما آخر المسجد. كما أن المأمومين لن يتمكنوا من الدوران 180 درجة وهم في صلاته للتحول لمكة.

((أرجوا من القراء تطبيق هذه التجربة عملياً، وذلك بالوقوف في غرفة عرضها أربعة أمتار، ويكونوا على شكل إمام ومأمومين، ثم يحاولوا التوجه للجهة المعاكسة، يعني الدوران 180 درجة)).

الخلاصة: لم يصل الرسول لفلسطين (قبلة اليهود) يوماً واحداً، ولكنه وجد مسلموا يثرب يصلون لها، ولم يكن يستطيع أمرهم بكلامه الشخصي فانتظر حتى نزل الوحي يأمرهم بالتوجه للقبلة، ففعلوا.

وتستمر البقرة في مخاطبة المسلمين: كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ{151} فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ{152}.

ويستمر الخطاب للمسلمين ولكن بمواضيع أخرى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ{153} وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ{154} وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ{155} الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ{156} أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ{157}.

الآية 154 تتحدث عما سيكون. فالقتال لم يحدث بعد، بل إن القتال لم يفرض إلا في آيات قادمة، وهذا أسلوب متبع في القرآن رأينا آيات مشابهة في سور سابقة، حيث تبدأ الآيات بالحديث عن موضوع جديد وكأنه سبق الحديث عنه، مع أن الحديث عنه سيأتي بعد ذلك.

ثم تنتقل السورة للحديث عن بعض شعائر الحج: إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ{158}.

وقد يكون بعض المسلمين الجدد في يثرب سأل الرسول إن كان الطواف بين الصفا والمروة من الحج؟ فأجابته السورة.

وتنتقل السورة في (الآيات:159-162) لتحذير رجال الدين من بني إسرائيل وكل كافر: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ{159} إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَـئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ{160} إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ{161} خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ{162}.

بعد ذلك تتجه السورة لمخاطبة قريش: وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ{163} إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ{164} وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ{165} إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ{166} وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ{167} يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{168} إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ{169} وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ{170} وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ{171}.

والآيات: 165-167 تتحدث عن الضعفاء الذين يحبون ويتبعون أسيادهم.

ثم تنتقل السورة بالتذكير بما يحرم من المأكل: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ{172} إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{173}. وهو ما سبق وذكرته سورة النحل المكية: الآية 115.

وتعود السورة لتحذير رجال الدين من بني إسرائيل الذي أشارت له في الآية 159: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَـئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{174} أُولَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى

وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ{175} ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ{176}.

تعود السورة لإكمال الحديث عن القبلة مؤكدة أن هناك أهم في الدين من اتجاه القبلة وأهم من مجرد أداء الصلاة: لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ{177}.

فالدين كل لا يتجزأ. ولا يكفي أن نصلي باتجاه الكعبة لنصل لمرتبة البر، بل علينا أن نأتمر بكل أمر قرآني وننتهي عن نواهيه. ومن الأوامر ما ذكر هنا من تشريعات. ومنه: إيتاء المال (الإنفاق) على كل ما يحتاجه المجتمع المسلم وذكرت الآية بعضها.

ثم بدأت السورة بفرض التشريعات

القصاص

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ{178} وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ{179}.

العفو يكون بلا مقابل، وبدون ضغوط. أما العفو مقابل مال فهو شراء دم، قد لا يستطيعه إلا الغني، وبالتالي فسيظلم الفقير، والدين عدل لا ظلم فيه. وما يحدث حالياً عندنا هو شراء دم وليس عفو. وهو إعانة للقاتل (الظالم) على المظلوم (المقتول).

الوصية

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ{180} فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{181} فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{182}.

الوصية تكون للوالدين والأقربين حصرياً. ومن أوصى بغير ذلك فقد بدله بعدما سمعه.

في حال اتضح أن الموصي تعمد الإضرار بورثة آخرين بواسطة الوصية فلابد من نصحه وثنيه عن وصيته.

ويمكن الرجوع لمقال منشور عن الوصية على هذا الرابط:

http://www.facebook.com/notes/%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%A7%D8%AD%D8%AB-%D8%A7%D8%A8%D9%86-%D9%82%D8%B1%D9%86%D8%A7%D8%B3/%D8%A7%D9%84%D9%88%D8%B5%D9%8A%D8%A9/115089705239560http://www.facebook.com/notes/%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%A7%D8%AD%D8%AB-%D8%A7%D8%A8%D9%86-%D9%82%D8%B1%D9%86%D8%A7%D8%B3/%D8%A7%D9%84%D9%88%D8%B5%D9%8A%D8%A9/115089705239560

الصيام

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ{183} الصيام كتب على الأمم السابقة.

أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ{184}.

المريض والمسافر يحق لهما الإفطار. ومن أفطر لهذا السبب فهو مخير بين صيام أيام مماثلة فيما بعد، أو فدية طعام يوم كامل (فطور، غداء، عشاء) لمسكين عن كل يوم أفطره. ومن يرغب في زيادة ما يعطي المسكين فهو خير يحسب له. وتؤكد الآية أن من يصوم في السفر أو في المرض (إن استطاع) فهو خير له من الإفطار. وهذا هام، فالناس يظنون أن الإفطار في السفر أفضل.

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{185}.

الصيام المطلوب من رب العالمين هو شهر رمضان، فقط لا غير. وتؤكد الآية على أن قضاء ما فات من أيام رمضان بسبب المرض أو السفر أفضل من الفدية.

وهنك أربعة مواضيع ذات علاقة، منشور أولها على هذا الرابط:

http://www.facebook.com/notes/%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%A7%D8%AD%D8%AB-%D8%A7%D8%A8%D9%86-%D9%82%D8%B1%D9%86%D8%A7%D8%B3/%D8%A8%D9%85%D9%86%D8%A7%D8%B3%D8%A8%D8%A9-%D9%82%D8%B1%D8%A8-%D8%B4%D9%87%D8%B1-%D8%B1%D9%85%D8%B6%D8%A7%D9%86-1/134501826631681

ثم تبتعد السورة عن حديث الصيام: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ{186}.

الآية تقول أنه لا حاجة لساعة معينة لأن يقبل الله فيها التوبة، كآخر ساعة من يوم الجمعة كما يقول الحديث. والدعاء هنا هو الاستغفار والتوبة وليس طلبات دنيوية. لأن الدعاء لشيء دنيوي لا يستجاب.

وتعود السورة لإكمال الحديث عن الصيام، مخاطبة المسلمين: أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ{187}.

ومباشرة النساء في ليالي رمضان أباحته الآية قبل أن يسأل عنه المسلمون، ومع ذلك قالت الآية: عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ". لأن فرض الصيام تم في هذه السورة التي لم يقرأها المسلمون بعد، لكي يتساءلوا عن مباشرة النساء في الليل. وكأن الآية أعطت حكماً لتساؤل من البديهي أن يسأله المسلمون.

وتذكر الآية "الاعتكاف في المساجد" فهل الاعتكاف لأيام كما هو معروف الآن؟ أم أن الاعتكاف هو البقاء في المسجد لعدة ساعات فقط. أميل إلى أنه لعدة ساعات في رمضان فقط، لأن امتداده لأيام يعني التشبه بالرهبانية وتعطيل الإنتاج والإسلام حريص على الإنتاج والعمل ومحارب للرهبانية.

ثم تخاطب السورة المسلمين في يثرب: وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ{188}.

الآية واضحة المعنى لنا جداً لأننا نعيشها في أيامنا هذه. حيث يقوم أحد المنتفعين بإبلاغ صاحب النفوذ أن هناك قطعة أرض ممتازة ويقوم المتنفذ بوضع يده على الأرض وإعطاء المنتفع بعض المال. أو إبلاغ المتنفذ أن هناك شركة تدر مكاسب كبيرة ليدخل المتنفذ مع مالكها في المكسب، أو غير ذلك. لكن الآية تخاطب مسلمو يثرب زمن الرسول. ومن المحتمل أن مثل هذه التصرفات كانت موجودة في ذلك العصر، لكن من هم الحكام؟

هل المقصود زعماء اليهود وبني إسرائيل؟

المؤكد أنها لا تتحدث عن ملوك ممالك.

الأهلة + قانون سلوكي:

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ{189}.

الآية تفرض تشريعاً (قانوناً) سلوكياً هاماً في دخول البيوت.

القتال في سبيل الله

وَقَـاتِلُواْ فِـي سَبِيلِ اللّهِ الَّـذِينَ يُقَـاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَـدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِـبِّ الْمُعْتَـدِينَ{190} وَاقْتُلُـوهُمْ حَيْـثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَـةُ أَشَدُّ مِـنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَـاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَـرَامِ حَتَّـى يُقَـاتِلُوكُمْ فِيـهِ فَـإِن قَـاتَلُوكُمْ فَـاقْتُلُوهُمْ كَـذَلِكَ جَـزَاء الْكَـافِرِينَ{191} فَـإِنِ انتَـهَوْاْ فَـإِنَّ اللّهَ غَفُـورٌ رَّحِـيمٌ{192} وَقَـاتِلُوهُمْ حَتَّـى لاَ تَكُـونَ فِتْنَـةٌ وَيَكُـونَ الـدِّينُ لِلّهِ فَـإِنِ انتَـهَـواْ فَـلاَ عُـدْوَانَ إِلاَّ عَلَـى الظَّـالِمِينَ{193} الشَّـهْرُ الْحَـرَامُ بِالشَّـهْرِ الْحَـرَامِ وَالْحُرُمَـاتُ قِصَـاصٌ فَمَـنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ{194}.

الآيات تفرض بعض ضوابط الجهاد التي تظهر أن الإسلام لا علاقة له بما يتهم به من أنه دين دموي يلاحق الناس في كل مكان ليقاتلهم أو يرغمهم على الإسلام أو يسبي نسائهم ويستعبد رجالهم ويسلب أراضيهم وممتلكاتهم.

ومن الضوابط، ما يلي:

القتال موجه لمن يقاتل المسلمين فقط. ولا يجوز بداية الناس بالقتال، فهو تعد لا يحبه الله.

عندما يضطر المسلمون لقتال المعتدي عليهم أن يقاتلوه بكل قوة وصرامة.

لا للقتال في المسجد الحرام. لكن لو قاتلتهم قريش فيه فعليهم قتالهم.

قريش تريد أن تقضي على الدين (فتنة) فقتالهم لحماية الدين.

إن توقفت قريش عن قتال المسلمين فلا عدوان. ولا يقاتلون لأنهم كفار.

ولا يجوز التعدي والعدوان، بل يعتدى على المعتدي بمثل ما اعتدى على المسلمين.

الإنفاق في سبيل الله

وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ{195}.

ابن وراق

الإنفاق هو علاقة بين العبد والعبد، مثلما أن العبادات علاقة بين العبد وربه. والإنفاق مطلوب في كل وقت يكون هناك حاجة في دولة الإسلام. والآية هنا تأمر المسلمين بالإنفاق في سبيل الله. أي في تجهيز جيش المسلمين لما ينتظره من حروب مع قريش. وهذا يعني أن قريش أعلنت حربها على المسلمين برغم أنهم تركوا مكة. ولذلك يجب على المسلمين أن يكونوا مستعدين لها بالعتاد والسلاح والرجال، وهذا يحتاج للمال الذي يجب أن يغطيه الإنفاق من القادرين. والآية تحذر أن من لا ينفق وهو قادر فقد ألقى بنفسه للتهلكة لأن مصيره سيكون النار، ولو قام بكل أمور الدين الأخرى. فالدين لا يتجزأ وترك أمر مثل ترك كل الأوامر.

الحج

برغم أن الحج بقي معروفاً للناس في مكة وجزيرة العرب منذ أيم إبراهيم إلا أن الآيات تبين ما المطلوب في الحج وليس ما يقوم به الناس باسمه فقد يكون هناك بدع: وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ{196} الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ{197} لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ{198} ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{199} فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ{200} وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ{201} أُولَـئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ{202} وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ{203}.

وقد ورد ذكر لبعض مشاعر الحج في الآية 158.

وتعود السورة للحديث عمن يعلن الإسلام وهو كافر، الذي ذكرته السورة في الآيات:8-20: وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ{204} وَإِذَا

تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ{205} وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ{206}.

ثم تعود السورة للإنفاق المذكور في الآية 195، لتقول أن هناك من ينفق طواعية ليشتري نفسه من النار: وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ{207}.

ثم تشير السورة لمشاحنات بين مسلمين: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{208} فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ{209} هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ{210} سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ{211}.

ولو عدنا للوراء فإن المشاحنات بين فئتين من المسلمين كانت قد بدأت في مكة بين "مسلمة قريش" وبين مستضعفين مسلمين، وتكررت المشاحنات بينهم وآخرها بعد الهجرة وهو ما ذكرته الآيات: 6-12 من سورة الحجرات.

(الآيات:212-214) تظهر أن غالبية المسلمين في يثرب فقراء ومن المستضعفين: زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ اتَّقَواْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ{212} كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{213} أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ{214}.

والآية 214 تشير إلى أوضاع معيشية صعبة يعيشها المسلمون في يثرب في بداية الهجرة، وتحثهم على الصبر بتذكيرهم أن من سبقهم ممن آمن في أزمنة قديمة مستهم الضراء.

ويمكن تخيل الأوضاع هناك في تلك الفترة. فالمهاجرون خرجوا من مكة بلا أمتعة ولا أموال، إما هرباً من قريش أو لأنهم فقراء أصلاً كونهم من المستضعفين، وكانت أيامهم الأولى في يثرب قاسية عليهم فعلاً، فلم يعثروا على مصادر للرزق بعد، والأوس والخزرج لا يملكون من المال الكثير.

والقلة القليلة التي تملك المال تتحفظ على الإنفاق لئلا يجدوا أنفسهم يشاركون غيرهم بالفقر والفاقة، لذا تخبرنا السورة أنهم كانوا لا يسارعون في الإنفاق وإذا أمروا بذلك تساءلوا: يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ{215}.

عود لضوابط الجهاد

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ{216} يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{217}.

إذا بدأت قريش المسلمين القتال في الشهر الحرام فعلى المسلمين القتال فيه.

وحرص المسلمين على السؤال عن القتال في الشهر الحرام وقبل ذلك في البيت الحرام يظهر كم كان الناس يحترمون عهد الله وميثاقه القديم بحرمة الأشهر الحرم وحرمة مكة. وحرمة مكة أنقذت الرسول ومن آمن من قريش من اعتداءات قريش عليهم في مكة.

ومن الواضح أن من يحرص على السؤال عن القتال في الشهر الحرام والمسجد الحرام هم مؤمنوا قريش الذين حافظوا على هذه الحرمة.

والسورة تقول لهم إن قريش هي من سيبدأ قتالهم، وهي من تقاتلهم لتقضي على الدين وتفتن الناس في دينهم وهذه الفتنة وضياع الدين أهم عند الله من حرمة البيت والشهر. وتؤكد السورة أن قريش مصممة على حرب المسلمين أينما كانوا. وهو ما يدحض كذب المرخين الذين قالوا أن المسلمين هم من بدأ مطاردة قريش وقوافلهم التاريخية وأن قريش (التي صوروها بمظهر البريء المسكين) اضطرت لحرب المسلمين للدفاع عن أموالها.

ثم تؤكد السورة على وعد من آمن من يثرب ومن آمن وترك مكة مهاجراً في سبيل الله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَـئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{218}.

وتخبرنا السورة أن الناس سألوا محمد عن الخمر والميسر فجاء الجواب: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ{219}.

والآية لا تحمل أي تشريع. فلم تحرم الخمر هنا، ولكنها أجابت عن سؤال من سأل. ففيها إثم لأنها تتسبب بالبغضاء والشحناء والشجار، وفيهما منافع للناس.

ومما سأل الناس محمداً عن حكمه: فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاء اللّهُ لأعْنَتَكُمْ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ{220}.

وتفرض السورة تشريعاً خاصاً بالزواج من قريش: وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ{221}.

المشركون قد يضموا قريش وغيرها، لكن ما يؤكد أن الكلام هنا موجه لهم هو: أن قريش عدو محارب للمسلمين، وسبق وأخبرتنا سورة الممتحنة عن تحريم إبقاء الزوج المشرك. وهي هنا تقول لا تتزوجوا منهم. ومن الواضح أن السبب ليس الكفر ولكن العداء للمسلمين وشن الحرب عليهم. فكل عدو محارب للمسلمين لا يجوز التزاوج معهم، لكن يمكن التزاوج باليابانيين مثلاً، فهم مسالمون ولم يعادوا المسلمين برغم أنهم كفار.

وسنرى أن القرآن يبيح التزاوج بأهل يثرب من أهل الكتاب برغم تأكيد القرآن على كفرهم، كما مر بنا في سورة البقرة. لكنهم حتى الآن لم يعادوا المسلمين علناً. ولما أعلنوا عداءهم أو إنكشف، خرجوا من يثرب، وبالتالي لم يعد حاجة لنزول آيات تحرم التزاوج معهم.

وسئل الرسول عن المحيض: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ{222} نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ{223}.

والملاحظ أن الناس تسأل محمد ومحمد لا يجيب من تلقاء نفسه مهما كان الجواب واضح ومعروف، لأنه ملتزم بتبليغ رسالة ربه، وما هو سوى رسول. لذا فهو دائماً ينتظر نزول الوحي ويتلوه على السائل. هذا فيه تأكيد قاطع أن الدين لا يمثله إلا القرآن، وأن الرسول لم يكن يُحدِّثُ الناس بتلك الأحاديث التي نسبت له وتملأ كتب الحديث.

وتفرض السورة بعض التشريعات: وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ النَّاسِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{224} لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِيَ أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ{225}.

فلا يجوز استخدام الحلف لتأكيد صدق المتكلم. وعليه لا يجوز اعتبار اليمين في المحكمة كما هو قائم الآن. حيث يعمل بقاعدة جاهلية تقول: البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر. والتي جعلت كأن الله من أمر بها، والآية هنا تقول بتحريم ذلك. وقاعدة البينة على من إدعى جاهلية بالفعل ويقال أن أول من قالها هو قس ابن ساعدة، لكنها وجدت طريقها لتشريعات المسلمين، وأصبحت قاعدة ثابتة في محاكمنا. وإلا من يريد أن يأكل مال غيره وحقوقه فلن يمانع الحلف كاذباً. والحقوق لا تهدر لأن فاسقاً حلف، بل يجب أن يتم التحقيق الذي يقود إلى التعرف على الحقائق دون حاجة ليمين.

وتحرم السورة الإيلاء: لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَآؤُوا فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{226} وَإِنْ عَزَمُواْ الطَّلاَقَ فَإِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{227}.

والإيلاء هو هجر الزوجة وإهمال نفقتها دون طلاق لفترة غير محدودة كانت سارية، فجاءت الآية تقول أنه لا يجوز ترك الزوجة أكثر من أربعة أشهر. ثم الطلاق أو الوفاق. وهو شبيه بالظهار الذي تحدثت عنه المجادلة، وهو موجود بيننا اليوم، ومباركة القضاة.

وتستمر السورة في فرض تشريعات في الأحوال المدنية:

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكُيمٌ{228} الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ{229} فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ{230} وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللّهِ هُزُواً وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{231} وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ

بِـهِ مَـن كَـانَ مِـنكُمْ يُـؤْمِنُ بِـاللّهِ وَالْيَـوْمِ الآخِـرِ ذَلِكُـمْ أَزْكَـى لَكُـمْ وَأَطْهَـرُ وَاللّهُ يَعْلَـمُ وَأَنـتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ{232}.

(الآية:228) تحدد أن مدة التربص للطلاق هي ثلاثة قروء: أي ثلاث أوقات للحيض أي مرور ثلاث حيضات على المطلقة. وخلال هذه الفترة يمكن التصالح بين الزوجين والرجوع للحياة الزوجية.

وقوله: " وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحاً" أي خلال هذه الفترة لو تم الصلح وواقفت الزوجة، فزوجها له أفضلية بالعودة للحياة الزوجية مع زوجته. وكأنه إعادة للزواج بها.

وقوله: " وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ" للزوجه نفس الحقوق الزوجية التي للزوج. وتستطيع أن تشترط ما تشاء. سواءً بعد أن حدثت المشكلة التي كادت أن تؤدي بالطلاق، فلها الحق في اشتراط ما تشاء من شروط لقبولها الرجوع لزوجها. كما أنه للمرأة اشتراط ما تشاء قبل الزواج. وهذه الشروط تصبح لازمة. ما نعيشه في بلادنا أن شروط المرأة لا تؤخذ بالاعتبار في الغالب وللأسف، وهو مخالف لنص القرآن.

وتقول الآية: "وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ". الحقوق الزوجية متساوية للرجل والمرأة، لكن الرجل أوتي درجة على المرأة. ولعلها دور القيادة في البيت، ليس لأن المرأة أقل إنسانية، ولكن لأن تركيب الرجل يصلح للقيادة أكثر من المرأة، التي تصلح لأدوار لا يصلح لها الرجل، وهي اختلافات طبيعية بين الجنسين. وهذا لا يلغي بعض الاستثناءات حيث تكون المرأة هي القائد، لكن القاعدة دائماً للغالب وليس للإستثناء.

وتقول الآية:229 : "الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ" أي أنه يمكن أن يحدث خلاف بين الزوجين يؤدي لإعلان الرغبة في الطلاق وتقوم المرأة بالتربص، وأثناء فترة التربص يتم الصلح بينهما بشروط جديدة أو بدون شروط، ويعودان للحياة الزوجية. ثم يتكرر هذا مرة ثانية. لكن لو حدث وأن أعلنت رغبة الطلاق للمرة الثالثة فلا حاجة لفترة تربص، ويعتبر الطلاق نافذ منذ اللحظة التي يعلن فيه الزوجان رغبتهما بالطلاق. فقوله الطلاق مرتان، يعني الطلاق الذي يمكن التراجع عنه مرتان. أما الثالثة فثابتة.

ولو حدث الطلاق للمرة الثالثة فتقول الآية 230: فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ.

بعد الطلاق البائن (للمرة الثالثة) تصبح الزوجة أجنبية تماماً على الزوج كأي امرأة أجنبية أخرى، وليس له أفضلية في استرجاعها على أي رجل آخر، تلك الأفضلية التي كان يتمتع بها فيما بعد الطلاق الأول والثاني والذي ذكرته الآية (228): وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحاً".

وفي حالة الطلاق الثالث: " فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا".

هذه الآية تم لَيُّ معناها ليّاً مشيناً واستخدمت بطريقة مخزية في دين الله البريء مما فعله المسلمون باسمه هنا. وهي صورة تفوق كل الصور المشينة التي ألصقت بدين الله باسم التفسير والحديث.

فما يجري هو أن يقوم شخص بالزواج من المطلقة لفترة محدودة ويطلقها لكي تتمكن من الرجوع لزوجها. وهي تمثيلية أو مسرحية هزلية استخفافية، بطلها رجل يقوم بدور (المُحَلِّل). هو لم يكن ينوي أن يكون زوجاً، وعائل ورب أسرة، وهي لا تنوي أن تكون زوجة، ولا ربة أسرة. كل ما في الأمر هو أن يمضيا ليلة أو أقل معاً يمارسان خلالها العملية الجنسية، ويمكنهما من الغد أن يتطلقا (والوجه من الوجه أبيض، كما يقول مثل عامي عندنا).

فهل هذا دين لله؟ وهل يعقل أن يشرعه الله؟

إنه نوع من الدعارة تحت مسمى الزواج.

الآية تقول: أن الزوجة بعد الطلاق الثالث تصبح أجنبية تماماً على زوجها، ويكون بالنسبة لها كأي رجل آخر. لذا فلو تزوجت ومرت بمشاكل مع زوجها الثاني وتطلقا وبانت الزوجة. فستصبح جاهزة للزواج لو رغبت من أي رجل. في هذه الحالة لو تقدم الزوج الأول بطلب يدها كأي خاطب فلها أن تقبله أو ترفضه، ولو قبلت فكأنما يتزوجان للمرة الأولى. ولو كان هناك أي اتفاق أو تواطؤ من جانب الزوجة أو الزوج لإتمام زواج المرأة برجل (كمحلل) فهذا فسق ودعارة.

ونعود للآية 229 والتي تقول أن الحياة الزوجية معاشرة بالمعروف، ومتى ما أصبحت مستحيلة أو مزعجة فالطلاق هو الحل: فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ.

وفي حالة الطلاق، فلا يجوز للرجل أن يأخذ من امرأته شيء مما سبق ودفعه كصداق: وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَلاَ

جُنَـاحَ عَلَيْهِمَـا فِيمَـا افْتَـدَتْ بِـهِ تِلْـكَ حُـدُودُ اللّهِ فَـلاَ تَعْتَـدُوهَا وَمَـن يَتَعَـدَّ حُـدُودَ اللّهِ فَأُوْلَـئِكَ هُـمُ الظَّالِمُونَ{229}.

والمؤسف أن الزوج يأخذ ما دفع وأكثر بمباركة قضاة المحكمة عندنا، الذين نبذوا كِتَـابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ.

وقد تحدثنا عن موضوع له علاقة بالطلاق والخلع على الفيس بوك على هذا الرابط لمن يرغب في الإطلاع عليه:

http://www.facebook.com/notes/%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%A7%D8%AD%D8%AB-%D8%A7%D8%A8%D9%86-%D9%82%D8%B1%D9%86%D8%A7%D8%B3/%D8%A5%D9%84%D9%89-%D8%A3%D8%AE%D9%8A-%D8%B9%D9%8A%D8%B3%D9%89-%D8%B3%D9%84%D9%85%D8%A7%D9%86-%D8%AA%D9%81%D8%B6%D9%84-%D9%87%D8%B0%D8%A7-%D9%87%D9%88-%D9%85%D9%88%D8%B6%D9%88%D8%B9-%D8%A7%D9%84%D8%AE%D9%84%D8%B9/113840642031133

وتقول الآية: 231: وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللّهِ هُزُواً".

ما يحدث الآن في بلادنا هو أن قاضي المحكمة يقف في صف الزوج الذي يظلم نفسه كما تصفه الآية، ويحكم له بحق أن يمسك زوجته ضراراً.

وتقول السورة: وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ{232}.

لأن الزواج علاقة نبيلة يجب أن تستمر ما أمكن استمرارها، فلو حدث خلاف وتم الطلاق للمرة الأولى ثم أراد الزوجان التراجع، فلا يقف ذوي الزوجين ضد هذه الرغبة لأي سبب.

وستعود السورة للحديث عن هذه القوانين التي لها علاقة بالطلاق والنكاح بدءً من الآية 236، لكن السورة تنتقل هنا للحديث عن موضوع آخر وقوانين أخرى ذات علاقة: وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُواْ أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ

جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ{233} وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ{234}.

الآية 233 تتحدث عن قانون الإرضاع: حيث تحث الأم على إرضاع وليدها حولين كاملين لمن أرادت أن تتم الرضاعة.

وفي حال وقع الطلاق بين الأبوين فعلى الزوج أن ينفق على مطلقته التي ترضع له وليدها ووليده، كما يمكن للأم أن تشترط شروطاً مقابل إرضاعها. ويحق للأب البحث عن مرضع بديل عن الأم.

المهم هنا هو مصلحة الرضيع وليس الأب أو الأم. كما أنه لا يجوز أن تضار الأم بوليدها، مثل أن يؤخذ قسراً من حضانتها. ولا يجوز أن يضار الأب بوليده مثل أن يمنع منه.

الآية 234 تذكر مدة تربص المتوفى عنها زوجها. وبعد مضي الفترة فمن حق الزوجة أن تتزوج: فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ. وهذا يشمل البحث عن الزوج بالمعروف أي اقتراف لمعصية.

وتكمل الآيات التالية هذا الموضوع: وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاء أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَـكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً إِلاَّ أَن تَقُولُواْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً وَلاَ تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىَ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ{235}.

هذه الآية تقول بصريح العبارة أنه يباح للرجل أن يعرض على المرأة الزواج مباشرة، أو عن طريق وسيط. ولو أراد أن يفاتحها في الموضوع فله حق بلقائها في مكان عام، لكن يحرم الاختلاء بها. ولو كنا في مجتمع زرع الثقة بالفتاة وزرع الإيمان بالشاب فلو تقابل الشاب أو الرجل بالفتاة أو بالمرأة في مقهى لبحث موضع إمكانية الزواج فهذا اللقاء رعاه الله في كتابه. ما تحرمه الآية هو إضمار الإيقاع بالفتاة أو بالفتى لاقتراف الفاحشة.

وتعود السورة للحديث عن الطلاق والنكاح الذي بدأ في الآيات: 228-234، وتقول: التي تطلق ولم يمسها زوجها فإن لم يقدم لها صداق فلا شيء عليه، لكن من يستطيع يمكن أن يصرف لها نفقة وقت مدة التربص: لاَّ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاء مَا لَمْ تَمَسُّوهُنُّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ{236}.

لكن لو أن الزوج قدم صداقاً "فريضة" وطلق قبل أن يمس زوجته، فله حق استرجاع نصف ما قدم من صداق "فريضة". لكن لو تنازلت الزوجة بنفسها ودون ضغوط عن كل الصداق فهو حلال له": وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ{237}.

الآية تقول: " أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ" فتعني أن يتنازل الزوج عن نصفه الآخر ويهبه للمطلقة.

ثم تخرج السورة للحديث في موضوع مختلف: حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ{238} فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ{239}.

الآية {238}: تؤكد على أداء الصلاة في وقتها دون تأخير لأي سبب، ولو وجبت الصلاة وقت خوف فلا تؤخر، بل تؤدى ولو على الراحلة أو أثناء الجري كما تقول الآية {239}. وهو دليل على أن الصلاة لا تقبل في غير وقتها.

وهو سؤال سئلت عنه كثيراً.

ولنا أن نتخيل المصلي وهو يجري – وقت الخوف - وهو يومئ بالركوع والسجود دون أن تصل جبهته للأرض لاستحالة ذلك. وهو وضع مشابه لصلاة المريض الذي لا يستطيع الركوع والسجود ويكتفي بالإيماء. فتأخير الصلاة لا يجوز في مثل هذه الظروف، يعني عدم جواز تأخيرها لأي سبب آخر.

ثم تعود السورة للحديث عن العلاقات الزوجية: وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيَ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ{240} وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ{241} كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ{242}.

تقول الآية: 240 أنه يجب على من يموت وله زوجة أن يوصي لها بحق البقاء في منزله حولاً كاملاً. هذا يعني أنه إذا لم يوص الزوج فلا يحق للزوجة البقاء في منزل الزوج بعد وفاته.

ولو أوصى زوج لزوجته بالبقاء في المنزل حولاً، ثم قررت هي أثناء تلك الفترة مغادرة المنزل فلا جناح عليها.

الآيـة: 241 تفـرض حـق النفقـة للمطلقـة. لكـن الآيـة لـم تبـين كـم تـدوم هـذه النفقـة، ولعلهـا لفتـرة التربص.

ثم تتحدث السورة عن الجهاد: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ{243} وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{244} مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَـاعِفَهُ لَـهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{245}.

الآية: 243 تقول للمسلمين إن القعود عن القتال لا يعني تجاوز الموت، لأن الموت قادم، والآية استخدمت أسلوباً مميزاً غير معتاد. وبالفعل كل من خاطبتهم الآيات ماتوا في زمن متقارب، سواءً في ميدان المعركة أو خارجه. فالآية تقول أن الحياة قصيرة والموت آت لا محالة، فلا حاجة للخوف من الموت في سبيل الله لمن يؤمن بالله واليوم الآخر.

وتحث الآية 244 المؤمنين على القتال القادم ضد قريش.

ثم تحث الآية التي تليها 245 على الإنفاق لمتطلبات الحرب من تجهيز للجيش والمؤن والعتاد ..الخ، وتصفه بأنه قرض سيسدده الله بفوائد يوم القيامة.

وتقول الآية أن الإنفاق لن يقود صاحبه للفاقة، إشارة إلى أن بعض المسلمين يخشى العوز لو أنفق.

وهذه هي المرة الثانية التي تحث السورة على الإنفاق في سبيل الله، وهذا لا يعني أن الإنفاق يجب فقط في هذا المجال، لكنه يعني أن الإنفاق فرض لكي يسد حاجات المجتمع المسلم. فمتى كان هناك حرب فالأولوية في الإنفاق للحرب، لكن لا تسقط الاحتياجات الأخرى. ولو طبقنا الإنفاق الإسلامي في دولة حديثة فسيكون هو المسئول عن توفير المال الكافي لميزانية الدولة. ((على اعتبار أن الدولة ليست مملوكة لشخص أو عائلة، وعلى اعتبار أنها لا تملك موارد البلاد))

وتكون ميزانية الدولة مسئولة عن تأمين حياة كريمة لكل من يعيش على أرضها حسب مفهوم العصر للحياة الكريمة. إضافة لبناء دولة قوية واقتصاد متين وتعليم وصحة وبنية تحيتة .....الخ.

وتنتقل الآيات للحديث عن الكيفية التي تم فيها وصول داوود لحكم مملكة بعيدة عن موطن بني إسرائيل الأصلي: أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ

بِالظَّالِمِينَ{246} وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُواْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ{247} وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{248} فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ{249} وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ{250} فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ{251}.

وتختم السورة حديثها عن داوود بمخاطبة محمد: تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ{252}.

فأنت يا محمد لو لم تكن رسول لله لما عرفت هذه التفاصيل، فكل ما يورده القرآن من تاريخ لبني إسرائيل ورسلهم والأشخاص الذين يعرفونهم يهدف لإثبات أن محمد رسول لله لأنه لو لم يكن كذلك فلن يتمكن من معرفة تفاصيل الأحداث التي يكلمهم عنها من تاريخهم. كون بني إسرائيل يؤمنون بالله واليوم الآخر، ومشكلتهم في أنهم لا يريدون أن يؤمنوا أن بني إسماعيل خرج منهم رسول لله.

وتواصل السورة الحديث: تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ{253}.

تفضيل رسول على آخر ليس بالقرب من الله أو البعد عنه، لأن هذا لا يقرره الله مسبقاً. ولكن بمثل ما أعطت الآية أمثلة عليه: فموسى كُلّم، وعيسى بدون أب، ومحمد خاتم الأنبياء ورسول لكل الناس.... وهكذا فهذا التفضيل فرضته الظروف التي وجد فيها الرسول عندما أرسل.

وليست كما يظن البعض. فموسى عند اليهود لا مثيل له أبداً، فجاء من المسلمين من قال شبيه لذلك عن محمد، فوصف بسيد الأنبياء والمرسلين وسيد أبناء آدم، والمصطفى وكأن الله لم

يصطفي للرسالة غيره، مع أن القرآن يقول: وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ{47} ص. بعد أن ذكر داوود وسليمان وأيوب وإبراهيم وإسحاق ويعقوب. ويقول القرآن في مكان آخر: {إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ{33}آل عمران.

وهذا موضوع للاستزادة:

http://www.facebook.com/notes/%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%A7%D8%AD%D8%AB-%D8%A7%D8%A8%D9%86-%D9%82%D8%B1%D9%86%D8%A7%D8%B3/%D9%84%D8%A7-%D9%86%D9%81%D8%B1%D9%82-%D8%A8%D9%8A%D9%86-%D8%A3%D8%AD%D8%AF-%D9%85%D9%86-%D8%B1%D8%B3%D9%84%D9%87/120049768076887

ونعود للآية 253 التي تؤكد أن الناس تبتعد عن الدين بعد الرسل.

وتعود السورة لمخاطبة المؤمنين في يثرب، وتحثهم على الإنفاق للقتال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ{254}.

والآية فيها تحذير بأن من لا ينفق فهو كافر، حتى لو صلى وصام والتزم بقية أوامر الدين وانتهى عن نواهيه، فالدين كل لا يتجزأ، ومخالفة أمر إلهي مساو لمخالفة كل الأوامر.

ثم تقول السورة: اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ{255}.

هذه الآية يسميها المسلمون آية الكرسي، لأنه ذكر فيها. والقرآن لا يسمي الآيات أبداً، ولكن تسمية الآيات يكثر منها أتباع المذهب الشيعي، وإن قال بها أتباع المذاهب الأخرى بدرجة أقل. وليس للآية المذكورة أي تميز عن كلام الله الآخر. لكن بعض المسلمين اعتبرها من الخوارق بحيث تحفظ من العين والسحر والهوام والخوف وحتى الموت. شيء لا أساس له في دين الله، لأن القرآن شفاء للصدور وحجاب من النار وليس عقيقة وحجاب عن العين والخرافات.

والآية تمجد ذات الله، وتظهر جانباً من عظمته وعظمة خلقه. والكرسي هنا قد تعني إدارته وتحكمه جل جلاله، لأن الآية تقول: " وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ". فالكون (السموات والأرض) لايؤوده (يعجزه).

ثم تقول السورة: لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{256} اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ

الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{257}.

بعد سنوات من بعثة محمد ومعرفة القاصي والداني بما يدعوا له وتبين الرشد والغي، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وليس هناك إكراه في الدين. فمن آمن فالله وليه ومن كفر فوليه الطاغوت. وقد رأينا في عدد من سور مكة أن القرآن كرر الدعوة لقريش بالتعايش السلمي مع المسلمين لكن قريش – شأنها شأن أي معارض للدين – رفضت الدعوة وأعلنت الحرب للقضاء على الإسلام. وهو ما سيحاوله أهل يثرب الرافضين لدعوة محمد.

ثم تتحول السورة لإعطاء أمثلة عمن وليه الله ووليه الطاغوت: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{258}.

فحجة الكافر والمخالف للحق واهية ولو تمسك بها وبررها.ولو فكروا بعقلانية لاهتدوا: أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَـذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{259}.

ثم تقول السورة أن التساؤل بحثاً عن الحقيقة لا حدود له ولو تناول الذات الإلهية، وضرب مثلاً بتساؤل إبراهيم: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَـكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ{260}.

فسؤال إبراهيم للاقتناع وليس مثل تساؤل الإنكار كما سألت بني إسرائيل: " .... فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ..... {153} النساء. أو تساؤلات قريش عن رؤية الملائكة وتكليم الله...

والسؤال حول الآية هو: هل لو قمنا بتطبيق ما ورد في الآية هل ستعود الحياة للطير؟ الجواب:لا.

لأن المخاطب في الآية هو إبراهيم والمتكلم هو الله، الذي أراد أن يحقق أمنية إبراهيم برؤية الحياة تعود للموتى.

ولذلك أمره بتقطيعها إلى أشلاء وتوزيع الأشلاء في أماكن متفرقة متباعدة، وبأمر الله عادت إليها الحياة.

لكن لو أراد إبراهيم تكرار العملية في يوم آخر بعد ذلك فلن تعود الحياة للطير. لأن عودة الحياة ليس بتطبيق العملية، ولكن بقدرة الخالق سبحانه وتعالى.

وتعود السورة للحديث عن الإنفاق للاستعداد للقتال القادم مع قريش، وهذا يعني أن المسلمين أصبح يقيناً لديهم أن قريش تحشد حشودها وتنوي مهاجمتهم، لذا كررت السورة الحث على السرعة في الإنفاق: مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ{261} الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواْ مَنّاً وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{262}.

الآية 261 ترغيب على شكل تصوير حسي كما كان الحال بتصوير انهيار الكون وما في الجنة والنار بصور حسية في السور المكية.

الآية 262 تحذر من الإنفاق مع المنة والأذى، وفيه إشارة إلى أن بعض من ينفقون من (المسلمين) كانوا يفعلون ذلك.

ويستمر التحذير: قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ{263} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ{264}.

وتظهر الآية 264 أن البعض ينفق رياء، وهؤلاء ممن آمن نفاقاً، وسبق أن تحدثت عنهم السورة في بدايتها.

وتعد السورة من ينفق لوجه الله: وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ{265}.

وتعطي السورة مثلاً لتثبيت الصورة في الذهن: أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ{266}.

فالإمساك عن الإنفاق يمحق الحسنات ويؤدي للنار.

وتؤكد السورة أن الإنفاق – إن كان عيني – يجب أن يكون من أطايب الطعام والأشياء وليس من الفاسد منها: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ{267}.

ومن أنفق من الخبيث (الفاسد) فلن يقبل منه. نحن اليوم يجب أن نتمسك بهذا القانون، وكل قوانين القرآن. فما يشرعه القرآن في أناس زمن الرسول يعني أنه ينطبق على كل مسلم في كل زمان ومكان. فلا يجوز أن ينفق من الخبيث الذي لا يوافق المرء على شرائه لنفسه واستهلاكه إلا إن اشتراه وهو لا يعلم. ولا يجوز الإنفاق من سيء الطعام وفاسده، ولا سيء الأثاث والأشياء الأخرى.

وتستمر السورة بين الترغيب في الإنفاق والترهيب من تركه: الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ{268} يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ{269} وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ{270}.

والحديث مستمر عن تأمين متطلبات الجيش المقبل على حرب قريش: إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ{271}.

وتستخدم الآية لفظ الصدقات مرادفاً للإنفاق، وتقول لا بأس لو أعطيتموها علناً لمن يجمع الإنفاق، أو أعطيتموها مباشرة للفقراء (سواءً كانت دروع وملابس حرب أو مطية أو مواد تموينية أو أي شيء آخر). وليس المقصود بالصدقات الريال والخمسة والفتات الذي نمده للمحتاج ليزيد من سحق كرامته ولا يسد رمقه، وتشعر المنفق بالزهو والعظمة. الصدقات هي الإنفاق وهي الزكاة وهدفها تحقيق الاكتفاء والحياة الكريمة والتكافل وليس سحق الكرامات.

ولأن مواقف المسلمين تباينت من الإنفاق في تلك الفترة، فالسورة تقول للرسول: لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ{272}.

ثم تبين السورة لمن تكون أولوية الإنفاق في تلك الفترة: لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ{273}.

فقراء يريدون الجهاد لكن لا يملكون شروي نقير. لا ركوب ولا سلاح ولا حتى ما يسد رمقهم في بيوتهم، لكنهم لا يمدون أيديهم للناس. ومن الواضح أنهم من المهاجرين.

الناس الآن يقولون هي تنطبق على كل فقير يهلك من الجوع ولا يمد يده، والحقيقة أن التسول يمسخ الكرامة، لكن وجود فقير يضطر للاستجداء في هذه البلاد يعني أن الإنفاق الإسلامي لا وجود له. وبالتالي فمن يستجدي قد يكون بالفعل فقير محتاج، وقد يكون محتال. لكن لو كان محتالاً فالوضع الذي اضطره لكسب رزقه بالاحتيال هو وضع بعيد عن الإسلام. متى وجد الفقر في بلد مسلم فلا وجود للإنفاق بمعناه القرآني الشامل الذي يعني توفير حياة كريمة علمية عاملة منتجة قوية عزيزة لكل الأمة.

وتستمر السورة لتمتدح المنفق لوجه الله: الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{274}.

وهذا لا يعني أن الإنفاق فضلة من الغني متى دفعه فله أجر ولو امتنع فماله وهو حر فيه. لا.

فمن لا ينفق بنسبة من مكاسبه تفرض (في عصرنا الحالي على الجميع) بحيث يكفي المجموع لسد احتياجات المجتمع كما سبق وذكرنا فلن يدخل الجنة. الجنة فقط لمن ينفق. والإنفاق ليس بمفهوم الزكاة الحالي الذي لا وجود له في القرآن والمتمثل بدفع نسبة 2.5% مرة في العام وبس. الإنفاق هو الدفع متى وجدت الحاجة دون تحديد عدد مرات الدفع ولا سقف لمبلغ ولا نسبة. طبعاً شريطة أن يكون هناك دولة إسلامية.

وتستمر السورة في نفس موضوع الإنفاق وتقول: الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىَ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{275} يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ{276}.

تقول الآية 275 عمن يأكلون الربا أنهم كمن يتمايل عندما ينهض، كونه يتخبط في الضلال، وشبهت ذلك بمن يتخبطه الشيطان من المس. وهو تصوير حسي لزيادة التأثير. والتصوير الحسي كثير في القرآن، كما مر بنا، وليس حكراً على تصوير آكل الربا بمن بتخبطه الشيطان من المس. ومن ذلك قوله تعالى: إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ{64} طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ{65} الصافات. فالآيات تصف طلع شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم الذي لم تره قريش بعد، برؤوس الشياطين التي لم يرها أحد قط. لكن الآية تخاطب قريش بما يعتقدون، فهم يتصورون أن للشياطين رؤوس يضرب بها المثل بالقبح. فالآية تصور طلع شجرة الزقوم،

بصورة خيالية مشابهة لتلك الصورة التي تتخيلها قريش عن رؤوس الشياطين، والتي لا وجود لها في الواقع سوى في خيالهم. ويكون تصوير من يأكل الربا بمن يتخبطه الشيطان من المس ليس فعلياً، ولا يعني أن هناك مس. بل هذا ما يعتقد الناس، والتخبط في الضلال صور على أنه كتلك الصورة الخيالية التي يتخيلها الناس عن مس الشيطان.

ويبدوا أن بعض من أسلم من أصحاب المال، استغل فترة الاستعداد للحرب وحاجة كثير من الناس لتوفير متطلبات الجهاد، وحتى توفير متطلبات الحياة اليومية لبعض منهم، وأمدهم بالمال بطريقة ربوية. فجاءت الآيات تتحدث عن ذلك وتحذر منه، ذلك أنه يجب على الموسرين دفع المال بلا مقابل لسد الاحتياجات، لكنهم استغلوه للربح الربوي.

وسبق وذكرنا أن الإنفاق يعني الدفع لدولة الإسلام ما يكفي لتغذية ميزانيتها التي تكفل الحياة الكريمة للكل. والحياة الكريمة بمفهوم العصر الحالي تعني توفير: علاج وتعليم وسكن ومواصلات وخدمات وبنية تحتية. وإذا اضطر المسلم للربا لكي يؤمن هذه الاحتياجات فهذا يعني أن الربا منتشر وانتشار الربا يعني طرد الإنفاق. لأن الربا يعني استغلال ظروف الحاجة للاستيلاء على مال المحتاج، بغض النظر عن الوسيلة. أما تحريم الاتجار بنقود مقابل نقود واعتباره هو عين الربا فهذا لم يقله القرآن ولكن قاله المحدثون. الإنفاق يعني توفير حياة كريمة للمحتاج على حساب الغني بلا مقابل.

وليس من الإسلام أن يقال للمعدم أن يبقى معدماً، وأن ليس بالضرورة أن يأكل فاكهة الموز إذا لم يجد قيمتها، أو يرضى بدخل شهري ضئيل لا يكفي معيشة عائلته ليوم واحد، فيما يتمرغ بعض رجال الدين بالمتع الدنيوية ويطوفون الدنيا شرقاً وغرباً وتتضخم حساباتهم البنكية بالهبات والعطايا ثم يقول أحدهم بأن على الفقير الذي لا يجد ما يكفي للسفر أن يقضي الصيف في بيته، رداً على سؤال وجه إليه في برنامج تلفزيوني، سأله فيه رجل فقير كيف يمكن له أن يستمتع بالصيف كما يفعل بعض الناس وهو لا يملك ما يكفي لقوت يومه. أو يقول آخر لفقير بأنه ليس من الضروري أن يأكل موز، إذا كان لا يستطيع أن يشتري كيلو موز. هذا منطق رأس مالي، ولا يقره الإسلام.

ودولة الإسلام لا تحتكر الثروات الوطنية ولكنها تكون للمواطنين على شكل شركات مساهمة يمتلك الناس أسهمها. وتقوم ميزانيتها على الإنفاق الذي يساهم كل مواطن قادر، بنسب متساوية.

ومتى ما امتلكت الدولة ميزانية قادرة، أصبح لديها برامج عملية فعالة للقضاء على الفقر، وإبقاء دخل الفرد على مستوى يفي بتأمين حياة كريمة لصاحبه ومن يعول، إضافة لبنى تحتية وخطط

تنمية. تهدف للوصول بالمجتمع المسلم إلى الصورة التي رسمها الله لهم ليكونوا عليها: مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً.(الفتح:29)

وسيصبح شطأ دولة الإسلام في هذه الحالة غليظاً اقتصاديا، لأن توفر السيولة المالية وتدوير المال بين الناس يقوي حركة الشراء ويرفع من مستوى المعيشة، وإذا زاد المال المتوفر بين أيدي الناس زادت مساهماتهم فيما يدفع لحاجات الدولة من جهة وما يشترونه من سلع من جهة أخرى. ويكون التاجر الذي ساهم بالإنفاق، قادر على أن يستعيد كل ما دفعه للمساهمة بميزانية الدولة، عن طريق حركة البيع النشطة أكثر وسيعوض كل ما خسره عن طريق الإنفاق، حتى ولو كان مجال الربح في بضائعه قليل، لأن مبيعاته ستكون كبيرة، ولن يحتاج لأن يصل مجال ربحه لدائرة الجشع الممنوعة شرعاً. ولن يكون هناك موطئ قدم في دولة الإسلام للربا: يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ.

ويكون المسلمون قد توصلوا - بإرشاد من الله - لأهمية تدوير المال عبر الإنفاق فساهموا في التكافل الاجتماعي من جهة وزادت مبيعات التجار من جهة أخرى ومكاسبهم، وهذه فطنة وذكاء وحكمة في الدنيا ونجاة من النار في الآخرة، دلنا عليها القرآن قبل أن تظهر للوجود جميع النظريات الإدارية والمالية الحديثة، وقال بأنها تغني الفقير وتكسب التاجر وتحمي المجتمع من الربا، يقول تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ. الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ.(البقرة:267-269)

ولكن وللآسف الشديد أطاع المسلمون الشيطان، وقالوا بأن الربا يمكن أن يحل المشاكل الاقتصادية، وهذا لم يحصل لهم. فعم الفقر مجتمعاتهم برغم الأموال الهائلة والثروات التي تنعم بها بلادهم: .... ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىَ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. البقرة:275)

ولم يفطنوا لعرض القرآن بأن الإنفاق وحده من ينشط البيع ويحقق الأرباح على المدى الطويل للمنفق والمستفيد: يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ.(البقرة:276)

ولن يكون المسلمون بحاجة إلى أي تعامل ربوي على الإطلاق، لأن المحتاج ستكفله الدولة ولن يضطر للاستدانة والتعرض للربا. وهذا يتحقق فعلياً وعلى أرض الواقع لأن من قاله هو الله، فصدق الله العظيم فيما قال عن الإنفاق، وصدق الله في كل آية: تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ.(الجاثية:6)

ويكون الإنفاق طارداً للربا من المجتمع، وإن وجد الربا في أي مجتمع فهذا يعني أن الإنفاق قد طرد.

ولكن المسلمون تبنوا النظام الرأس مالي، والذي لا يقوم على حماية الفقير ورفع مستواه الاقتصادي والتكافل الاجتماعي بين الناس، ولكنه يقوم على استغلال الفرص للربح المادي، وكل من عانده الحظ مادياً فليس له الحق بالخدمات العامة التي يحصل عليها الغني أو الحياة الميسرة التي يعيشها، فالدنيا مصالح وشطارة وليس في التجارة الرأس مالية أي مجال لمشاعر الرحمة.

ولذلك جاء التعامل بالربا في تلك المجتمعات، وكانت النتيجة أن أصبح إحدى الوسائل لتنافس الأغنياء على سحب ما بقي بأيدي الفقراء من مال، فازداد الفقير فقراً، ولم يجد في دول المسلمين من يحميه ويسد حاجته، وازداد الغني غنى ولم يستطع الوصول للقناعة، بل زاد جشعه أكثر مع كل درهم يجنيه.

فالربا يمثل نظرة اقتصادية رأسمالية، بينما يمثل الإنفاق نظرة اقتصادية إسلامية.

وتستمر السورة في الحديث عن الربا: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{277} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{278} فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ{279} الزكاة = الصدقة = الإنفاق. والزكاة صفة للإنفاق كونه يزكي المال ويطهره.

والآية 277 تعد من ينفق + الإيمان والعمل الصالح بالجنة. وهو ما يعني أن الإنفاق وحده أو معه الإيمان لا يكفي للجنة برغم أهمية الإنفاق القصوى. لأن الدين كل لا يتجزأ، ويجب القيام بكل أمر، والانتهاء عن كل نهي وكبيرة.

ثم تعيد السورة تحذير من كان يتعامل بالربا من المسلمين. وقد يقول قائل لو كان الربا موجب للخلود في النار فكيف تخاطبهم السورة بـ "يا أيها المؤمنون"؟ نقول: لو أكملنا الآية فهي تقول: اتقوا الله وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ((إن كنتم مؤمنين)). هم مؤمنين حتى يسمعوا النهي والتحذير. فإن ارتدعوا وثابوا فهم مؤمنون. وإن استمروا على كبيرة الربا فقد خرجوا من الإيمان. والربا مثله مثل أي كبيرة، من استمر باقترافها بعد معرفة الحكم فهو مخلد في النار.

وتعطي الآية 279 خيارين: إما أن تستمروا في التعامل بالربا وهذا يعني إعلانكم الحرب على الله ورسوله أو أن تتوبوا. وتقدم الآية عرضاً لمرة واحدة ولهم خاصة، كونهم من نزل بحقهم تحريم الربا، هذا العرض يتلخص بأن يبقوا على رأس المال دون الفوائد الربوية. وبما أن حكم الربا واضح في القرآن فليس لأحد أن يأتي بعد عصر الرسول ثم يقول أن من يتعامل بالربا يحق له أن يأخذ رأس ماله وعفا الله عما سلف. لأنه عندما بدأ التعامل بالربا كان هناك حكم إلهي بتحريمه وتوعد من يقترفه بالخلود في النار. لذا فكل من تعامل بالربا بعد عصر الرسول فلا توبة له لأنه اقترف كبيرة وهو يعلم حكمه مسبقاً.

الآن البنوك تقدم عروضاً للناس تحت مسميات إسلامية اكتسبتها من توقيع رجال دين على أنها كذلك. ويظن الناس أنها أصبحت إسلامية بالفعل. لكن الواقع يقول الربا ربا ولو أحله كل المسلمون وليس فقط بعض رجال دينهم. كما أن التعدي في السبت كان حراماً على بني إسرائيل، وكونهم يحجزون الصيد يوم السبت ويصطادونه يوم الأحد لم يغنهم من غضب الله شيئاً. والربا والإنفاق لا يمكن أن يجتمعان في دولة الإسلام. ومتى وجد الربا فالإنفاق حتماً قد أبعد، ومتى وجد الإنفاق فالربا حتماً قد طرد.

الربا ليس بقلة الفائدة وكثرتها، الربا هو أن تقترض مالاً أو عيناً لتعيدها لصاحبها (بفوائد كثيرة أو قليلة). لأن الإسلام يوجب على المسلمين التكافل الاجتماعي، بحيث لا يبقى بينهم محتاج. ومن احتاج للاقتراض لحاجة ليست ملحة فعلى القادر إقراضه م نسميه اليوم قرضاً حسناً يعني يقرضه 100 ريال ليعيدها 100.

والقضاء على الربا لا يعني إغلاق البنوك، التي يمكن أن تستمر لتحويل الأموال وحفظها، لكن يجب عليها الابتعاد عن القروض بالفوائد، التي لن يكون لها حاجة، لن الدولة ستضمن لكل مواطن حياة كريمة لن يحتاج معها لقرض حرام. ويمكن أن يبقى البنك كشريك ممول لكل من يرغب في التوسع التجاري. فصاحب الفكرة أو المشروع يدخل مع البنك مشاركة في الأرباح مقابل أن يمول البنك المشروع.

ثم تقول السورة في نفس الموضوع: وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ{280} وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ{281}.

فحتى الحاجة الشخصية تجب في الإنفاق. فمثلاً لو أن شخصاً ألمت به أزمة فوق طاقته (خارج ما توفره له دولة الإسلام من حياة كريمة) واحتاج للمال، فعلى من يملك المال أن يمده بما يحتاج شريطة أن يعيده له بلا زيادة. وهو ما يعرف اليوم عند الناس (بالقرض الحسن). ويكون السداد ميسر جداً، ولو تسامح عنه المقرض فهو خير له عند الله: " وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ".

لكن لو رغب المقرض باسترجاع ماله فهو حقه.

وهناك حالات يحتاج فيها الشخص المال ليس بسبب أزمة غير متوقعة ولكن لسبب كمالي. وفي مثل هذه الحالة لو وجد من يقرضه، فالقرض لا بد أن يكون لأجل وبدون فوائد. وهنا يلعب المقرض دور المساعد وعلى المقترض أن يضمن له حقه. وهذا يكون بتوثيق القرض: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيراً أَو كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{282} وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ{283} للَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{284}.

والسورة تسميه دين. والدين للأسف تحول بمفهومنا الحالي إلى مفهوم الربا. أي قرض بفوائد. أما في القرآن وفي هذه الآيات فالدين هو ما نسميه قرض حسن.

ثم تختم سورة البقرة: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ{285} لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ{286}.

الآية 285 تقول لبني إسرائيل الذين يؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعض، أن من يؤمن بدين الله، فعليه أن يؤمن بكل رسله.

ونكون قد وصلنا إلى نهاية لقاءنا اليوم، على أن يكون اللقاء القادم إن شاء الله مع اليوم رقم 15.

والسلام عليكم

ابن قرناس